أزمة الخطاب الإسلامى فى علاقة الشرق بالغرب

أ.د/ محمد عبد الصمد مهنا(*)

الواقع أن روح الهزيمة الحضارية التى منيت بها كثير من شعوب وبلاد العالم الإسلامى فى العصور الحديثة قد أسلمتها إلى حالة من غيبة الوعى بحقيقة تراثها، وجعلها تتشبث بالحضارة الغربية فى يأس ومَذَلّة، محاولة اللحاق بها فى عشوائية وتخبّط، إلى الحد الذى حدا ببعض من آلت إليهم الكلمة سواء فى الحكم أو فى الفكر الإسلامى إسباغ شرعية على الأنماط المستوردة بصورة ممجوجة وعلى كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

ومما زاد الأمر تفاقمًا أن البريق اللامع للمدنية الأوروبية قد أدى ليس فقط إلى تعميق الشعور بالهزيمة لدى هذه القوى الإسلامية فحسب، بل أغرى صانعيها أنفسهم -أى: الأوروبيون- بالتمادى فيما انتهجوه قبلاً من سبيل إلى الحد الذى رسخ لديهم الاعتقاد بأن ليس هناك إلا نمط واحد من الإنسانية هو الإنسان الأوروبى، ونمط واحد من الحضارة، وهو الحضارة الأوروبية الحديثة بوصفه النمط الوحيد الجدير بالاتباع من قبل العالم أجمع، الأمر الذى أغوى وأخفى عنهم حقيقة الدرك الذى ينحدرون فيه، ومن وراثهم بقية الأمم.

وفى ظل هذا المناخ وتحت وطأة الضغوط الأوروأمريكية وجد المسلمون أنفسهم فى موقف الدفاع، بترديد مفاهيم واستخدام مفردات، وتبنى مواقف لا تؤدى فى النهاية إلا إلى عكس الهدف منها.

تلك هى أزمة الخطاب الإسلامى فى حقيقة الأمر، فرفض رؤية الأمور على حقيقتها، واصطناع تقارب مزيف بين الشرق والغرب، وعدم الاعتراف بالاختلاف الجذرى بين الحضارة الغربية ذات النزعة المادية المعادية لكل ما هو غيبى أو إيمانى،

(*) أستاذ القانون الدولى - جامعة الأزهر.

والحضارة الإسلامية ذات النزعة المؤمنة بما وراء المادة وحجب الغيب الحديثة، يؤدى فى الحقيقة إلى تفاقم العلاقات وتعقدها، ويسرع بالغرب والشرق معًا إلى كارثة محتومة.

فطالما أن الغرب لا يرى إلا نمطًا واحدًا من الإنسانية، ونوعًا واحدًا من الحضارة، فلا أمل فى إمكان تحقق تفاهم أبدًا أيًا كان نوعه.

ولطالما أن الغرب لا يرى معياراً للحقوق سوى قوانينه، وأسسًا للعدالة سوى الوضعية، والعدالة النفقية، فلا أمل فى إقرار السلم والأمن فى العالم. ولطالما أن الغرب لا يعترف بمنهج للعلوم سوى المنهج التجريبى، ولا نوع للتقدم سوى التقدم المادى، ولا لمعرفة من المعارف سوى المعارف التكنولوجية، فكيف السبيل إلى التلاقى.

كيف يمكن مواجهة الغرب بأن هناك حضارات أخرى متعددة سوى الحضارة الغربية الرأسمالية، وأن هذه الحضارات تتطور فى اتجاهات شتى، وإن حضارته تمثل شذوذًا فى سلم الحضارات؛ لأنها الحضارة الوحيدة من بين كل الحضارات التى كان تطورها فى اتجاه مادى بحت. وأن هذا التطور الهائل الذى شهد بدايته ما اصطُلح على تسميته «عصر النهضة فى أوروبا» قد صحبه انحطاط فكرى مواز، تمثل فى انحسار الفكر والمعارف فى دائرة المادة أو المحسوس، ورفض ما عداها من علوم ومعارف يعجز المنهج العلمى عن إدراكها وحده.

كيف يمكن إقناع أناس يعتبر الفكر أو العلم بالنسبة لهم وسيلة فقط للتصرف فى المادة، وتطويعها لأغراض علمية أو تصنيعية؟! كيف يمكن إقناع فلاسفة أوروبا -منذ بيكون وديكارت وكانت وهيجل إلى يومنا هذا- أن وراء الطبيعة عالم ما وراء الطبيعة، وأن قوانين عالم الشهادة تدور فى فلك عالم الغيب ومحكومة بقوانينه، وأن ليس من شىء فى عالم الملك إلا وهو ظلال لحقائق عليا فوق قوى عقول الغفاة فى عالم الكون؟!

كيف يمكن إقناع الغرب بأن أحكام هيمنت ما تبقى من على العالم التى وصلت إلى مداها من خلال العولمة إجراء أمر المثال؟!

يكفى للعصف به حادث غير متوقع قبيل ذلك الذى حدث فى الحادى عشر من

سبتمبر الماضى... كيف يمكن مصارحة الأوروبيين أن الإرهاب الذى يهددهم يكمن سببه الرئيس فى طبيعة الحضارة الأوروبية الحديثة ذاتها، وأنه مجرد دعوى ككثير من لدعاوى التى يجيد الغرب استثمارها لمزيد من محاصرة الأمة الإسلامية سياسيًا، كدعاوى حقوق الإنسان أو الحرية أو الديمقراطية أو الشرعية الدولية، أو غير ذلك من الإيحاءات والشعارات التى يؤكد الواقع والتاريخ أنها عكس ما توحى به تمامًا؛ لأنها قيم أنتجتها الآلة البرجوازية، فلأول مرة فى تاريخ البشرية تصنع القيم والمبادىء والأخلاق، ويتم تغليفها وتسويقها على هذا الأساس.

كيف يمكن مصارحة الغرب أن الجات ليست إلا أداة النظام الرأسمالى للقضاء على الهوية الاقتصادية للأمم الأخرى، تحت مسمى الخصخصة أو إعادة التكيف أو التحديث أو المساعدات الاقتصادية أو حرية التجارة، بما يقتضيه ذلك من تضحيات وتنازلات خصمًا من حساب الرصيد الدينى والخلقى للأمة؟!

كيف يمكن إقناع الغرب بالكف عن محاصرة الأمة اجتماعيًا وفكريًا بالإمعان فى تصدير الأنماط الغربية فى هذه المجالات، من خلال مؤسسات الإعلام والتعليم والثقافة ونوادى الماسونية والروتارى والليونز وفضائح الإعلام المرئى والمسموع والمقروء، وموبقات علب الليل؟ ومخازى السينمات والمسارح والملاهى، وتدعيم النفوذ العلمانى على كافة المستويات؟!

إن إفشال المشروع الإسلامى الحضارى الذى أصبح مرشحًا بالفعل بعد انهيار الشيوعية بانتهاء الحرب الباردة ليكون الطرف الثانى فى معادلة توازن القوى الذى كان سائدًا من قبل بين الأيديولوجية الرأسمالية والشيوعية خلال نصف القرن الماضى، فليست القضية قضية محاربة الإرهاب، وإنما محاربة الإسلام بذلك.

إن الصراع الحضارى عمومًا وعلى مر التاريخ البشرى كان -ولايزال- حقيقة واقعة، وليس وليد اليوم أو نظرية مستحدثة لهانتنجتون أو فوكوياما أو غيرهما، وإنما ظهرت هذه النظريات على السطح فى الآونة الأخيرة عندما بدأت أشراطها تتحقق فى أرض الواقع بصورة أكثر ضوحًا للعيان.

والحضارة الإسلامية بأبعادها الدينية والروحية تقف على النقيض من الحضارة الغربية بأبعادها المادية الدنيوية البحتة، ولما يحدث لقاء بين الحضارتين فى الجوهر، فضلاً عن النظر إلى الكون والحياة والإنسان، ناهيك عن موقف الحضارتين من الدين، إذ هو موقف جد خطير، فبينما تعتبر الحضارة الإسلامية الدين منهج الحياة وحافز الحضارة، تقف الحضارة الغربية من الدين موقف العداء، وتعزو إليه صنع أسباب التخلف والتراجع الحضارى.

ومن هنا فعلق للمتخوفين والمترددين أن الصراع ليس بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى، بل بين كل الأديان من وجهة والغرب العلمانى المعادى للدين أى دين ولروح التراث أى تراث من جهة أخرى.

والثورة على الكنيسة فى أوروبا مهما كانت تجاوزات هذه الكنيسة لم تكن إلا بداية انحطاط فى مسيرة الغرب الحضارية، والتى جرفت معها العالم كله، وتنحدر به نحوو هاوية أو كارثة لم تحدث للبشرية من قبل، ما لم تسارع الحضارة الإسلامية بما تبقى لديها من أنفاس فى تعديل المسار وإنقاذ البشرية. وليس هذا الأمر بالسهل أو المهمة الهينة خاصة فى هذا العصر.

إن الحضارة الغربية الحديثة تقوم بكامل بنيانها على عنصر سببى بحت، ألا وهو غياب المبدأ ومعاداة حقائق الدين وروح التراث، ومن ثم لا يمكن أن يتوافر لديها أية وسيلة للتفاهم مع سواها من الحضارات، فأقرب الحلول لديها دائمًا هو الانتقام والغزو والتدمير، ولم يكن للغرب أن ينجح فى غزو العقول وقتل الروحانية فى شتى بقاع الأرض، والظهور بمظهر المتفوق حضاريًا لمجرد التقدم المادى التكنولوجى، بوصفه الجانب الوحيد الذى يمكن فيه التفوق الغربى، وإنها لغيبة الوعى لدى شعوب وحكام الأمة الإسلامية عن إدراك أصولها الحضارية والإلمام بحقائقها الجوهرية، وفيما عدا ذلك من الأزمات اللاأخلاقية والشعارات ذات النزعات الإنسانية الرنانة التى دأب الغرب على رفعها، فليست إلا أساليب للدعاية والخداع والنفاق تستخدم فى الوقت المناسب

للوصول إلى هدفها التخريبى، ففى الوقت الذى تقصف فيه الطائرات الأمريكية المساجد والمنازل بأفغانستان فتهتز لها بشدة نوافذ إسلام أباد على بعد ٦٠ كيلو متر، تقذف المروحيات الأخرى المساعدات والمعونات والأغذية للأفغان، تلك هى الحقيقة التى لا يمارى فيها إلا أناس سُذَّج أو لهم مصلحة حقيقية فى هذا العمل الشيطانى حقًا بأدق معانى الكلمة.

فليست إذن الحروب ضد الإرهاب، وإنما هى حرب ضد الإسلام، يستخدم فيها الإرهاب ضمن أسلحة أخرى كثيرة، فليحذر المسلمون حكامًا ومحكومين من الانخداع بذلك، وليجمعوا أمرهم على أمر واحد، فالإسلام فى خطر ودول الإسلام على شفا جرف هار، وأمة الإسلام تختنق، والأمم تتداعى عليها كما تتداعى الأكلة على قصعتها أو كما جاء فى حديث النبى ﷺ.

فلم تعد لها هيبة فى قلوب أى من أعدائها، بل أصاب الوهن قلوبها وأصبحت كالفأر فى المصيدة، تندفع فى اتجاهات شتى لا تعرف مخرجًا، وقد أصابها الدوار، تجتمع قياداتها وتنفض على لا شىء، اللهم إلا الخزى والمهانة والذل، ليس ذلك لقلة فى العدد أو العتاد، فليس هناك أمة تربو وحدها على مليار ونصف كأمة الإسلام، وليس هناك أمة تتمتع بمثل ما تتمتع به هذه الأمة من ثروات وخيرات، وليس هناك أمة لها تاريخ وتراث كأمة الإسلام، وليس هناك أمة وعدها الله بحفظ ذكرها مثل أمة الإسلام ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩]، وليس هناك أمة جعلها الله أمة وسطًا مثل أمة الإسلام، بل هي خير أمة أخرجت للناس، ولكننا ضيعنا الأمانة وتخلينا عن الرسالة وأحببنا الدنيا وكرهنا الآخرة، ولهثنا ورا الغرب فى كل شىء فأورثنا الوهن الذى أشار إليه النبى ﷺ فى الحديث، فانحطت الأمة وأصبح بأسها بينها شديداً، وانتكست بفعل المادية المستوردة التى لا تتقيد بدين ولا خلق ولا نظام ولا ضمير ولا قانون.

واندفعت فيها عوامل الإلحاد مع رياح العلمانية وما نتج عنها من أمراض اجتماعية

وفردية على كافة المستويات، وغفلت عن رب الدين والدنيا، فاختلت مع الغفلة الموازين الاجتماعية والقيم الأخلاقية، وزاغت الكفايات الروحية، فلم يعد للضمير الفردى أو الجماعى أدنى اعتبار، ولم يعد للحريات العامة أى ميزان، ولم يعد للمثل العليا من آثار، ولم يبق للحقوق والأمانات والحرمات من حفاظ.

وتفشى فيها الكبر والرياء والتجسس والغل والخيلاء والمكر والحسد والتخابث والكيد والإباحية والزندقة والغيبة والنفاق والخيانة والأنانية والغدر والبخل والمراوغة والجبرية والتمرد والتملق والمداهنة وسوء الأدب وقلة الحياة، وإنكار الفضل وتشويه الجميل، ونزوات الشهوات والتخنث والنذالة والعيش على كسب الغير، والتوفر على أذى الخلق وتتبع العورات،...إلخ وغيرها مما ينحط بالبشر إلى أقل من مرتبة الأفاعى والحشرات، وأصاب أفرادها الضعف والقلق والخوف والانفعال والفزع والانزعاج والغضب والاضطراب والتشكيك والوسوسة والتخيل والوهم والكسل والجبن والسأم والضجر والملالة والعجز والضيق.

إن الأمة الإسلامية اليوم أمام لحظة تاريخية حكامًا ومحكومين، فعليها أن تتخذ قرارًا تاريخيًا إما بإضاءة شعلة الحضارة الإسلامية التى خبأ نورها لأكثر من ثلاثة قرون، لتستأنف مسيرتها على أنوار الهدى الربانى، ولتنير لغيرها الطريق، ولتنقذ البشرية من كارثة محققة، وإما أن تستمر فى سيرها وراء الغرب فى موكب جنائزى عالمى نحو الهاوية.

وإضاءة شعلة الحضارة الإسلامية ليس مقصودًا به ذلك الخطاب المنهزم، الذى ينعق بما يمليه عليه الغرب، ولا تلك القشريات والسطحيات الفجة، والشعارات الرنانة والصراعات الحزبية الكاذبة والمتاجرة بالأديان والتطرف والعنف والإرهاب، كما هو أيضًا ليس بالانهزامية والجهل والاغترار بالآخرين، وإنما بالعودة إلى الروحانية وإلى الربانية وإلى العلاقة بالله والإيمان بما وراء الغيب، وما يستتبع ذلك من المعارف العليا، واستقرار أنظمة الحياة على كافة مستوياتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية

والفكرية، وسمو الإنسانية وتقدم البشرية نحو النور والخير والجمال والحب والعطاء في كلمة مختصرة، بأن يتحول الدين بكل أبعاده الروحية والتشريعية الدنيوية والأخروية، الظاهرة والباطنة الثابتة والمتغيرة المكانية والزمانية إلى معاملة على أرض الواقع.

ذلك هو الخطاب الإسلامي الحقيقي، فكيف السبيل إلى ذلك؟

* * *